دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الثورة الثقافية الشبابية : عندما اصبح الهواء قليلا
المصدر:	أدب ونقد
الناشر:	حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
المؤلف الرئيسي:	هوبزباوم، إيريك
مؤلفين آخرين:	العالم، شهرت(مترجم)
المجلد/العدد:	ع 189
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2001
الشهر:	مايو
الصفحات:	11 - 42
رقم MD:	288043
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الولايات المتحدة الامريكية ، الثورة الثقافية ، الزواج ، تعدد الزوجات، الثقافة الجنسية ، اوروبا ، الاحوال الاجتماعية ، الطلاق ، الشباب ، الثقافة الشبابية ، الازياء ، الموسيقى ، السلوك ، الاحوال الاقتصادية، الراسمالية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/288043

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الثورة الثقافيـــة الشبابية
(عندما أصبح الهواء قليلا)

تأليف : إريك هوبسباوم
ترجمة: د. شهرت العالم

الفصل الحادى عشر من كتاب اريك هوبسباوم Eric hobsbawm بعنوان: From the Extremes، والعنوان الأصلى للفصل هو Culture Revolution.

نشرت أدب ونقد هذا الموضوع الهام فى عددها الماضى ،وللأسف الشديد وقع فيه اختلاط مسئ فى ترقيم الصفحات ،مما أضر بالموضوع. هنا ،نعيد نشره ويعتذر مدير التحرير للمترجمة د. شهرت العـــالم، وللقـــراء. (ح. س)

فى الفيلم، تؤدى كارمن مورا دور رجل أجرى عملية تغيير لجنسه؛ وبسبب علاقة حب تعيسة مع والده/والدها، هجر/هجرت الرجال ودخل/دخلت فى علاقة جنسية مثلية مع امرأة (حسب تخمينى)، يقوم بأداء دورها أحد مُغنثى اللباس المشهورين فى مدريد.

تعليق على أحد الأفلام، منشور فى "Village Voice"، بقلم بول برمان (١٩٨٧، ص ٥٧٢)

التظاهرات الناجحة ليست بالضرورة تلك التظاهرات التى تحشد أكبر عدد من الناس، بل التى تجذب أكبر اهتمام بين الصحفيين. ويمكن القول، بقليل من المبالغة، إن خمسين من الأفراد الماهرين الذين يتمكنون من الحصول على عرض مدته خمس دقائق على شاشة التلفزيون لأى "حدث" ناجح، يمارسون تأثيراً سياسياً يماثل التأثير الذى يُحدثه نصف مليون متظاهر.

(Pierre Bourdieu, 1994)

١

إن أفضل مقاربة لهذه الثورة الثقافية تتخذ سبيلها، من ثم،من خلال الأسرة family والأسرة المعيشية household (أى من خلال بنية العلاقات بين الجنسين والعلاقات بين الأجيال. لقد كانت هذه المسألة تمثل، فى أى مجتمع، نوعاً من المقاومة المؤثرة إزاء أى تغيير مفاجئ ، لكن ذلك لا يعنى أن تلك البُنى كانت ساكنة أو مفتقدة للحركة والتغير. وعلاوة على ذلك، كانت تلك الأنماط تمتد على نطاق عالمى - رغم ما يبدو من مظهر عكسى - أو على الأقل تجمع بينها أوجه تشابه أساسية عبر مناطق شاسعة. هذا، على الرغم من وجهة النظر القائلة بوجود اختلاف رئيسى بين أوراسيا (بما فى ذلك جانبى البحر المتوسط) من ناحية، وباقى أفريقيا من الناحية الأخرى (Goody, 1990VII, ؛ وهى وجهة نظر تقوم على أسس اجتماعية اقتصادية وتكنولوجية. وبالتالى، فإن تعدد الزوجات - الذى يُقال إنه كان غائباً تماماً أو أصبح كذلك فى أوراسيا، ماعدا بالنسبة للمجموعات المتميزة بوجه خاص فى العالم العربى - قد ازدهر فى أفريقيا، حيث قيل إن تعدد الزوجات كان يشمل أكثر من رُبع الزيجات (Goody, 1990, p. 379).

وعلى الرغم من ذلك، فقد تقاسمت الأغلبية الساحقة من البشر، عبر كافة اختلافاتها، عدداً من السمات المشتركة مثل: الزواج الرسمى وتميُز العلاقة الجنسية بين الزوجين (إذ يُعتبر "الزنا" جريمة فى كافة أنحاء العالم)؛ واعتبار الأزواج أعلى مرتبة بالنسبة للزوجات ("النزعة الأبوية")، والآباء بالنسبة للأطفال، والكبار بالنسبة للأجيال الشابة؛ واشتمال الأسر المعيشية على عديد من الأفراد ... إلى آخره. ومهما بلغ مدى تعقُد شبكة القرابة وما تشتمل عليه من حقوق والتزامات متبادلة، فقد كان

البيت النووى - الزوجان وأطفالهما - موجوداً بشكل عام فى مكان ما، حتى عندما كان البيت المشترك، أو كانت المجموعة أو الأسرة المعيشية المتعاونة، أكبر حجماً. لقد أصبحت الأسرة النووية نموذجاً قياسياً بالمجتمع الغربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين. ولذا، فإن فكرة تطور الأسرة النووية، بصورة ما، من أسرة أكبر ووحدات قرابة أكبر، كجزء من نمو البرچوازية أو أى نزعة فردية أخرى، إنما ترتكز على سوء فهم تاريخى ليس أقله طبيعة التعاون الاجتماعى والمنطق القابع خلفه فى مجتمعات ما قبل الصناعة. وحتى فى مؤسسة شيوعية مثل "زادروجا" (أو الأسرة المشتركة)، وهى مؤسسة سلافية فى البلقان، نجد أن "كل امرأة تعمل من أجل أسرتها بالمعنى الضيق للكلمة، وتحديداً زوجها وأولادها، ولكنها أيضاً، عندما يأتى دورها، تعمل من أجل أعضاء الجماعة (community) غير المتزوجين والأيتام" (Guidetti/Stahl, 1977, p. 58) إن وجود مثل هذه الأسرة ونواة الأسرة المعيشية النووية لا يعنى بالطبع أن مجموعات أو مجتمعات الأقارب - التى تضم هذه الأسرة - تتشابه فى جوانب أخرى.

ومع ذلك، بدأت هذه الترتيبات الأساسية، التى امتدت لفترة زمنية طويلة، تشهد تغيُراً متسارعاً خلال النصف الثانى من القرن العشرين فى البلدان الغربية "المتقدمة"، وإن كان تغيُراً متفاوتاً حتى داخل تلك المناطق. ففى انجلترا وويلز عام ١٩٣٨ - ولايمكن إنكار درامية هذا المثال - كانت تحدث حالة طلاق واحدة لكل ٥٨ زيجة (Mitchell, 1975, p. 30-32)، فى حين بلغ المعدل فى منتصف الثمانينيات حالة طلاق واحدة لكل ٢ر٢ زيجة جديدة (UN Statistical Yearbook, 1987). وبالإضافة إلى ذلك، يمكننا أن نشهد تسارع هذا الاتجاه فى الحياة المشتركة الحرة بأعوام الستينيات. ومع نهاية السبعينيات، ارتفع المعدل إلى أكثر من ١٠ حالات طلاق لكل ١٠٠٠ زواج فى انجلترا وويلز، أى مايزيد بخمس أضعاف عما كانت عليه الحال عام ١٩٦١ (Social Trends, 1980, p. 84).

لم يكن هذا التوجه مقصوراً على بريطانيا. ويمكن، بطبيعة الحال، رؤية هذا التغير الدرامى بوضوح فى البلدان ذات الأخلاقيات التقليدية المفروضة بقوة، مثل البلدان الكاثوليكية. ونجد فى بلچيكا وفرنسا وهولندة أن المعدل الخام للطلاق (عدد حالات الطلاق سنوياً لكل ألف من السكان) قد ارتفع بمقدار ثلاثة أضعاف تقريباً بين عامى ١٩٧٠ و١٩٨٥. ومع كل، فحتى فى البلدان ذات التقاليد المتحررة فى مثل هذه الأمور - مثل الدنمارك والنرويج - كان يمكن أن يرتفع المعدل بمقدار الضعف، أو تقريباً الضعف، فى نفس الفترة. وكان واضحاً أن شيئاً غير عادى يحدث بالنسبة للزواج فى الغرب. فالنساء اللاتى ترددن على عيادات أمراض النساء فى كاليفورنيا فى

السبعينيات قد أبدين "انخفاضاً جوهرياً فى الزواج الرسمى، وتقلصاً فى الرغبة فى الأطفال ... وتحولاً سلوكياً بشأن قبول التكيف ثنائى الجنس" (Esman, 1990, p. 67). ولم يكن من المرجح أن يتم تسجيل رد الفعل هذا من قطاع عرضى من النساء فى أى مكان، حتى كاليفورنيا، قبل ذلك العقد.

لقد تزايدت أيضاً أعداد الأفراد الذين يعيشون بمفردهم (أى ليسوا أعضاءً فى علاقة زوجية أو أسرة أكبر). فى بريطانيا، ظل عددهم على ماهو عليه خلال الثُلث الأول من القرن، بمعدل يبلغ ٦٪ لكل الأسر المعيشية، ثم اتجه نحو الارتفاع قليلاً بعد ذلك. ومع كل، تضاعفت النسبة، خلال الفترة ١٩٦٠ - ١٩٨٠، من ١٢٪ إلى ٢٢٪ تقريباً لكل الأسر المعيشية؛ ثم ارتفع المعدل إلى مايزيد على الرُبع مع حلول عام ١٩٩١ (Abrams, Carr-Saunders, Social Trends, 1993, p. 26). وفى كثير من المدن الكبيرة فى الغرب ، كان هؤلاء الأفراد يشكلون حوالى نصف كل الأسر المعيشية. وعلى العكس من ذلك، كانت الأسرة النووية الغربية الكلاسيكية - الزوجان وأطفالهما - تشهد تراجعاً واضحاً. لقد انخفض معدل هذه الأسر فى الولايات المتحدة من ٤٤٪ من كل الأسر المعيشية إلى ٢٩٪، وذلك فى فترة ٢٠ عاماً (١٩٦٠-١٩٨٠). وفى السويد - حيث كان نصف المواليد تقريباً خلال الثمانينيات لنساء غير متزوجات (World's Women, p. 16) - انخفض المعدل من ٣٧٪ إلى ٢٥٪. وقد أصبحت الأسر النووية أقلية واضحة، حتى فى البلدان المتقدمة التى كانت هذه الأسر تُمثل فيها نصف أو أكثر كُل الأسر المعيشية عام ١٩٦٠ (مثل كندا، وألمانيا الفيدرالية، وهولندة، وبريطانيا).

وفى حالات معينة، كفت هذه الأسر عن أن تكون نمطية حتى من حيث الاسم. ففى عام ١٩٩١، كانت المرأة تتولى منفردة قيادة ٥٨٪ من مجموع أُسر السود فى الولايات المتحدة، كما كان ٧٠٪ من مجموع الأطفال ينتمون لنساء منفردات. أما فى عام ١٩٤٠، فقد كانت الأمهات المنفردات يتولين قيادة ٣ر١١٪ فقط من الأسر "غير البيضاء"؛ وحتى فى المدن بلغت النسبة ٤ر١٢٪ فقط (Franklin Frazier, 1957, p. 317). وحتى فى عام ١٩٧٠، بلغت النسبة ٣٣٪ فقط (New Yourk Times, 5/10/92).

لقد ارتبطت أزمة الأسرة بتغير كبير إلى حد ما فى المعايير العامة التى تحكم السلوك الجنسى، والشراكة، والإنجاب. وكانت المسألة على مستويين: رسمى وغير رسمى. وهناك بيانات توضح التغير الرئيسى على المستويين، وتتطابق مع بيانات الستينيات والسبعينيات. من الناحية الرسمية، كان العصر استثنائياً من زاوية الليبرالية فى مجال العلاقات الجنسية، سواء بين الجنسين (وأساساً بالنسبة للمرأة التى تمتعت بقدر من الحرية أقل من الرجل)، أو فى حالة علاقات الجنسية المثلية.

ويصدق نفس الشئ على أشكال اختلاف الرأى الثقافية-الجنسية الأخرى. ونجد فى بريطانيا أن غالبية علاقات الجنسية المثلية لم تكن مُجَرَّمة خلال النصف الثانى من الستينيات، أى بعد الولايات المتحدة بسنوات قليلة، حيث كانت ولاية إلينوى أول ولاية تجعل علاقات المثلية الجنسية بين الذكور قانونية فى عام ١٩٦١ (Gohansson Percy, p. 304, 1349 .,) وفى إيطاليا البابا، أصبح الطلاق قانونياً عام ١٩٧٠، وهو حق تأكد عبر استفتاءٍ فى عام ١٩٧٤. وقد أصبح بيع وسائل منع الحمل وتوفير معلومات عن تنظيم الولادات قانونياً عام ١٩٧١. وفى عام ١٩٧٥، حل قانون جديد للأسرة محل القانون القديم الذى كان مستمراً منذ فترة الفاشية. وأخيراً، أصبح الإجهاض قانونياً عام ١٩٧٨، ثم تأكد عبر استفتاء فى عام ١٩٨١.

ودون شك، أدت القوانين المتساهلة إلى تيسير الأفعال التى كانت محظورة حتى ذلك الحين، كما أسهمت فى انتشارها. ومع ذلك، فقد كان القانون بمثابة اعتراف بالمناخ الجديد - االذى يتسم بالتساهل فى مجال العلاقات الجنسية - وليس خالقاً لهذا المناخ. ففى أعوام الخمسينيات، بلغت نسبة النساء البريطانيات اللاتى عِشن لفترة من الوقت مع أزواجهن قبل الزواج ١٪ فقط؛ ولم يكن ذلك راجعاً إلى التشريع. كما لم يكن التشريع أيضاً سبباً فى أن ٢١٪ من النساء البريطانيات فعلن نفس الشئ فى باكورة الثمانينيات (Gillis, 1985, p. 307). وقد أصبحت الأمور الآن مُباحة بعد أن كانت محظورة، ليس بالقانون والدين فحسب، وإنما أيضاً بالأخلاقيات العُرفية والعادات ورأى المحيط المجاور.

وبطبيعة الحال، لم تؤثر هذه الاتجاهات على مناطق العالم المختلفة بنفس القدر. فبينما ارتفعت معدلات الطلاق فى جميع البلدان التى كان مُتاحاً فيها (إذا افترضنا مؤقتاً أن الإنهاء الشكلى للزواج عن طريق إجراء رسمى له نفس المعنى فى جميع هذه البلدان)، أصبح الزواج أقل استقراراً فى بلدان أخرى. لقد ظل استمراره متواصلاً فى البلدان الرومانية الكاثوليكية (غير الشيوعية)، فى أعوام الثمانينيات. وكان الطلاق أقل انتشاراً فى شبه الجزيرة الأيبيرية وفى إيطاليا، بل وحتى أقل ندرة فى أمريكا اللاتينية، حتى فى البلدان التى تفتخر بثقافتها الرفيعة: حالة طلاق واحدة لكل ٢٢ زيجة فى المكسيك، ولكل ٣٣ زيجة فى البرازيل (ولكن المعدل فى كوبا كان حالة طلاق واحدة لكل ٥ر٢ زيجة). وظلت كوريا الجنوبية تقليدية على نحو استثنائى، رغم كونه بلداً سريع الحركة (حالة طلاق واحدة لكل ١١ زيجة). ومع كل، فحتى اليابان - فى باكورة الثمانينيات - بلغ معدل الطلاق فيها أقل من رُبع المعدل لدى الفرنسيين، وأقل كثيراً عن المعدل لدى البريطانيين والأمريكيين الذين يلجأون إلى الطلاق بسهولة.

وحتى فى العالم الاشتراكى (حينذاك)، كان الوضع يشتمل على تغيرات عديدة - رغم أنها كانت أقل مما عليه الحال فى ظل الرأسمالية - ماعدا بالنسبة للاتحاد السوفيتى، حيث كان ترتيبه الثانى بعد الولايات المتحدة فيما يتعلق باستعداد مواطنيه لتحطيم زيجاتهم (UN World Social Situation, 1989, p. 36). ولاتثير هذه التغيرات الدهشة. الأمر الذى كان، ومايزال، يتسم بالأهمية أن نفس هذه التغيرات - سواء كانت كبيرة أم صغيرة - يمكن اقتفاء أثرها عبر عالم "التحديث" برمته. وأكثر المجالات لفتاً للنظر، فى هذا السياق، هو مجال الثقافة الشائعة لدى عامة الشعب، أو لمزيد من التحديد: الثقافة الشبابية.

٢

ففى حالة الطلاق، يشير وجود أطفال غير شرعيين، وبروز الأسرة المعيشية ذات الوالد الواحد (وبشكل ساحق: الأم المنفردة)، إلى وجود أزمة فى العلاقة بين الجنسين. كما أن بروز ثقافة شبابية خاصة وقوية بصورة فريدة يشير إلى حدوث تغيير عميق فى العلاقة بين الأجيال. إن الشباب هو مجموعة واعية ذاتياً تمتد عُمرياً من فترة البلوغ - وهى أكثر تبكيراً بعديد من السنوات فى البلدان المتقدمة عن الأجيال السابقة (Tanner, 1962, p. 153) - إلى منتصف عشرينيات العُمر. لقد أصبح الشباب الآن هيئة اجتماعية مستقلة. وتتمثل أهم التطورات السياسية، وخاصة فى الستينيات والسبعينيات، فى عمليات حشد الفرق الشبابية التى حققت، فى البلدان الأقل تسييساً، ثروات من صناعة الاسطوانات. لقد كان ٧٥-٨٠٪ من إنتاجها، وتحديداً موسيقى الروك، يُباع كله تقريباً إلى شباب فى الفترة العمرية ١٤-٢٥ سنة (Hobs-bawm, 1993, p. xxviii-xxix). إن التجذير السياسى الذى شهدته أعوام الستينيات، وكان متوقعاً من جانب فرق أصغر من المعارضين والمنشقين فى الميدان الثقافى تحت عناوين مختلفة، كان ينتمى إلى هؤلاء الشباب الذين رفضوا اعتبارهم أطفالاً أو حتى مراهقين (أى كباراً غير مكتملى النضج)، فى حين أنكروا الإنسانية الكاملة على الأجيال التى يزيد عمر أعضائها على ثلاثين عاماً، ماعدا بالنسبة للقادة الفكريين.

وفيما عدا الصين - حيث قام ماو بحشد القوات المُجندة الشبابية نحو واقع مروع (راجع الفصل ١٦) - كان الراديكاليون الشباب، بقدر قبولهم للقادة، يخضعون لقيادة الأعضاء فى مجموعة أقرانهم. ويصدق ذلك بجلاء على الحركات الطلابية فى كافة أنحاء العالم. ومع ذلك، وأينما كانت تنبعث الانتفاضات العمالية الضخمة، كما حدث فى فرنسا وإيطاليا فى ١٩٦٨-١٩٦٩، كانت المبادرة تأتى أيضاً من شباب العمال. ولم يكن بمقدور أحد لديه حتى الحد الأدنى من خبرة حدود الحياة الحقيقية، أى لم يكن بمقدور أى

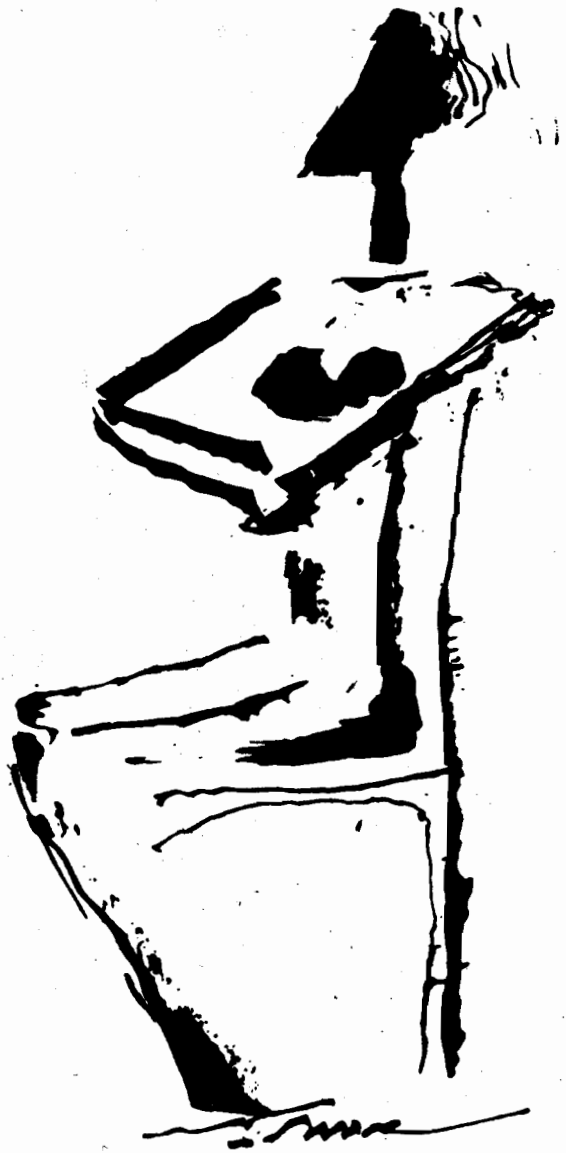

فرد بالغ بالفعل، أن يصوغ ابهذه الثقة والحسم تلك الشعارات غير العقلانية التى انطلقت فى أيام مايو ١٩٦٨ الباريسية أو "الخريف الساخن" الإيطالى لعام ١٩٦٩: حين اندلعت ثورة االشباب ومعها شعار "tutto e subito" – مثل إننا نريد كل شئ، ونريده الآن (Albers / Goldschmidt / Oehlke, pp. 59, 184).

إن "الاستقلال الذاتى" الجديد للشباب كشريحة اجتماعية منفصلة كان يُرمز له بظاهرة ربما لم يكن لها ما يوازيها، عند هذا المستوى، منذ العصر الرومانسى فى باكورة القرن التاسع عشر: البطل الذى حياته وشبابه انتهيا معاً. إن هذه الشخصية، التى ابتكرها فى الخمسينيات النجم السينمائى چيمس دين، كانت شائعة، وربما حتى مثالية نمطياً، فيما أصبح التعبير الثقافى المميَز للشباب – موسيقى الروك. هناك بادى هولى، وچانيس چوپلين، وبرَايان چونس من فريق "رولينج ستونز"، وبوب مارلى، وچيم هيندريكس، وعدد من الشخصيات المحبوبة جماهيرياً، قد وقعت جميعاً ضحايا لنمط الحياة المؤدى إلي موت المبكر. إن ما أضفى طابعاً رمزياً على هذه الوفيات أن الشباب، الذى كانت هذه الشخصيات تمثله، كان مؤقتاً بالتعريف وبالمهنة فيمكنك احتراف التمثيل كمهنة طوال حياتك، لكنك لا يمكنك أن تظل الفتى الأول إلى الأبد.

ومع ذلك، ورغم أن الانتماء لفترة الشباب يتغير دائماً – "جيل" الطلاب ينتهى بعد مجرد ثلاث أو أربع سنوات – فإن صفوف العضوية لهذه المرحلة عادة ما يُعاد شغلها. لقد كان الإقرار بظهور المُراهِق/المراهِقة كفاعل اجتماعى واعٍ ذاتياً يتزايد وبحماسة شديدة من جانب صُناع السلع الاستهلاكية، وأحياناً بصورة أقل تلقائية من جانب الأكبر منه/منها سناً؛ إذ وجدوا أن المسافة تتسع بين أولئك المستعدين لقبول صفة "الطفل" وأولئك الذين يصرون على صفة "البالغ". ونجد فى منتصف الستينيات أنه حتى حركة بادن باول، صبى الكشافة الإنجليزى، قد أسقطت الجزء الأول من اسمه كنوع من التنازل أمام المزاج السائد فى تلك الفترة، واستبدلت بقبعة الكشاف القديم المشهورة البيريه ذى الحافة الأقل نتوءاً (Gillis, 1974, p. 197).

إن المجموعات العُمرية لا تُعتبر شيئاً جديداً فى المجتمعات. وحتى فى الحضارة البرجوازية، تم الاعتراف بتلك الشريحة التى تضم أولئك الناضجين جنسياً، لكنهم مايزالون فى مرحلة النمو البدنى والفكرى ويفتقدون خبرة الحياة لدى الكبار. ولا يُغير من الأمر شيئاً أن هذه المجموعة أصبحت تصل إلى بداية سن البلوغ والحد الأقصى من ارتفاع القامة فى فترة أكثر تبكيراً عن السابق (Floud et al., 1990). ولم يؤد ذلك إلا إلى إحداث توتر بين الشباب وأولياء أمورهم ومُدرسيهم، الذين يُصرون على معاملتهم باعتبارهم أقل نماءً عما يشعرون به تجاه أنفسهم. لقد كانت الأوساط البرجوازية

تتوقع أن شبابها من الرجال - باعتبارهم متمايزين عن شاباتها من النساء - سوف يمرون خلال مرحلة من الاضطراب و"بذر" بذور "الشوفان" البرى الخاصة بهم. إن الجديد فى الثقافة الشبابية الجديدة كان ثلاثى الأبعاد.

أولاً، لم تكن مرحلة "الشباب" تُعتبر مرحلة تمهيدية فى فترة البلوغ، ولكنها كانت تُعتبر - بمعنى ما - مرحلة نهائية للتطور الإنسانى الكامل. لقد كانت الحياة تنحدر بوضوح بعد سن الثلاثين، مثلها فى ذلك مثل النشاط الرياضى، وهو النشاط الإنسانى الذى يبدو خلاله الشباب أكثر بروزاً، كما أنه يحدد الآن طموحات مزيد من البشر أكثر من أى شئ آخر. وفى أحسن الأحوال، يقل الاهتمام به بعد هذه السن. وهناك دليل آخر لطريقة تنظيم العالم على نحو غير مُرض، يتمثل فى أن الفكرة السابقة لاتتوافق والواقع الاجتماعى الذى تنامت خلاله، مع تزايد السن (باستثناء النشاط الرياضى، وبعض أشكال الترفيه، وربما الرياضيات البحتة)، القوة والنفوذ والإنجاز، فضلاً عن الثروة. وحتى سنوات السبعينيات، كان عالم مابعد الحرب محكوماً بواسطة الشيوخ بدرجة أكبر مما كانت عليه الحال فى الفترات المبكرة، وتحديداً بواسطة الرجال - بالكاد بواسطة النساء حتى الآن - الذين كانوا كباراً بالغين عند نهاية الحرب العالمية الأولى، أو حتى لدى بدايتها. وهو الأمر الذى ينطبق على كلٍ من العالم الرأسمالى (أديناور، ديجول، فرانكو، تشيرشل) والعالم الشيوعى (ستالين وخروتشوف، ماو، هوشى منه، تيتو)، كما ينطبق أيضاً على الدول الكبيرة فى مرحلة مابعد الكولونيالية (غاندى، نهرو، سوكارنو). إن وجود قائد يقل سنه عن الأربعين كان أمراً نادراً حتى فى النُظم الثورية التى ظهرت نتيجة للانقلابات العسكرية - وهو نمط من التغيير السياسى عادة ما يقوم به ضباط صغار نسبياً، لأن ما لديهم ويمكن أن يفقدوه يقل عما لدى الضباط الكبار. ومن هنا ينبع قدر كبير من تأثير فيدل كاسترو على المستوى الدولى، وقد تولى زمام السلطة وهو يبلغ من العمر ٣٢ عاماً.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هناك امتيازات صامتة، وربما ليست دائماً واعية، من جانب مؤسسات الكبار لتجديد شباب المجتمع، ليس أقلها ما قامت به الصناعات المزدهرة فى مجال مستحضرات التجميل والعناية بالشعر والصحة الشخصية، والتى استفادت - على نحو متفاوت - من الثروة المتراكمة لدى قليل من البلدان المتقدمة.(١) ومنذ نهاية الستينات، ظهر ميل نحو خفض سن التصويت إلى ١٨ سنة - كما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا - فضلاً عن بعض علامات بشأن خفض سن الإدراك بالنسبة للعلاقات الجنسية (بين الجنسين). ومن المفارقات الملحوظة أن زيادة طول فترة العُمر المتوقع أدت إلى زيادة نسبة كبار السن، على الأقل

بين الطبقات العليا والوسطى المحظوظة، كما تأخرت مرحلة الانحدار إلى الشيخوخة، وأصبح الوصول إلى سن التقاعد أسرع؛ أما فى الأوقات العصيبة، فقد أصبح "التقاعد المُبكر" أسلوباً مُفضلاً لتقليص نفقات العمالة. وقد وجد مديرو الأعمال، الذين تزيد أعمارهم على ٤٠ سنة، صعوبة فى إيجاد وظائف جديدة (تماثل الصعوبة التى وجدها العمال اليدويون وفئات الياقات البيضاء).

البُعد الجديد الثانى، المتعلق بالثقافة الشبابية، ينبع من البعد الأول: كان الشباب، أو أصبح، سائداً فى "اقتصادات السوق المتطورة". ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه كان يمثل كتلة متمركزة من القوة الشرائية، وجزئياً لأن كل جيل جديد من الكبار البالغين كان قد تربى باعتباره جزءاً من الثقافة الشبابية الواعية ذاتياً وحمل علامات هذه الخبرة، ليس أقلها أن سرعة التغير التكنولوچى المذهلة قد أعطت الشباب أفضلية بالفعل، يمكن قياسها، بالنسبة للأعمار الكبيرة نسبياً والتى تميل إلى المحافظة أو على الأقل عدم القابلية للتكيف. وبغض النظر عن البنية العُمرية لإدارة شركتى "آى. بى. إم" أو "هيتاشى"، فقد جاء تصميم الحاسبات الالكترونية والبرامج الجاهزة الجديدة على أيدى شباب فى العشرينيات من العُمر. وحتى عندما ثبُت أن هذه الأجهزة والبرامج مجرد أدوات غبية - بما يبعث على الأمل - فإن الجيل الذى لم يكن نموه مواكباً لها، كان واعياً بدونيته بالفعل بالنسبة للأجيال التى نشأت وتربت معها. إن ما يمكن أن يتعلمه الأطفال من الآباء قد أصبح أقل وضوحاً بالنسبة لما لايعرفه الأباء، ويتعلمونه من الأبناء. لقد أصبح دور الأجيال معكوساً. ونجد أن بنطلونات الچينز - وهى اللباس الشائع عن قصد الذى أصبحت له الريادة فى الجامعات الأمريكية من جانب الطلاب غيرالراغبين فى أن يبدو مظهرهم مشابهاً لمظهر الكبار - قد بدأت فى الظهور خلال أيام أجازة نهاية الأسبوع والعطلات، أو حتى فى المواقع "الإبداعية" فى أماكن العمل، يرتديها كثيرون من أصحاب الشعر الرمادى.

أما البُعد الجديد الثالث فى الثقافة الشبابية الجديدة فى المجتمعات الحضرية، فهو تدويلها الذى يصل إلى درجة مذهلة. لقد أصبح الچينز، كما أصبحت موسيقى الروك، علامات تدل على الشباب "الحديث" (المودرن)، وعلى الأقليات المُقدر لها أن تصبح أغلبيات، وذلك فى جميع البلدان التى أجازتهما رسمياً وفى بعض البلدان التى لم تجزهما رسمياً، كما هى الحال فى الاتحاد السوفيتى بدءاً من الستينيات وما بعدها (Starr, 1990, Chapters 12 to 13). إن كلمات اللغة الانجليزية التى استُخدمت لنظْم الشعر الغنائى لموسيقى الروك لم تتم أبداً ترجمتها. وهو الأمر الذى كان يعكس الهيمنة الثقافية الساحقة للولايات المتحدة على الثقافة وأنماط الحياة الشائعة، رغم ضرورة

الإشارة إلى أن جوهر الثقافة الشبابية الغربية كان النقيض للشوفينية ثقافياً، وخاصة فى الأذواق الموسيقية. لقد رحبوا بالأنماط المستوردة من منطقة الكاريبى وأمريكا اللاتينية؛ ومنذ الثمانينيات، تزايد ترحيبهم بالأنماط المستوردة من أفريقيا.

ولم تكن هذه الهيمنة الثقافية بجديدة، ولكن أسلوب عملها قد تغير. لقد كان توجهها الأساسى، فى الفترة الواقعة بين الحربين، يتمثل فى صناعة الفيلم الأمريكية، وهى الصناعة التى تحظى بتوزيع عالمى ضخم. وكان يشاهدها جمهور من مئات الملايين، وصل حجمه إلى أقصاه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. ومع نهوض التلفزيون والإنتاج السينمائى العالمى، ومع نهاية نظام ستديو هوليود، فقدت تلك الصناعة الأمريكية بعضاً من هيمنتها وكثيراً من جمهورها. لقد أنتجت فى عام ١٩٦٠ ما لم يزد على سُدس الإنتاج السينمائى العالمى، حتى بدون حساب اليابان والهند (UN Statistical Yearbook, 1961)، رغم أنها أخذت تستعيد أخيراً كثيراً من هيمنتها. فإن الولايات المتحدة لم تنجح أبداً فى تحقيق السيطرة على أسواق التلفزيون الضخمة شديدة التنوع من زاوية اللغة. لقد انتشرت أنماطها الشبابية، إما بصورة مباشرة أو من خلال تكبير إشاراتها عبر بريطانيا كموقع ثقافى فى منتصف الطريق، وذلك عن طريق نوع غير رسمى من النفاذ بالتثاقف والامتزاج. وقد انتشرت من خلال الاسطوانات، وبعد ذلك شرائط التسجيل؛ وكان وسط الترويج الأساسى لها - فى ذلك الحين، وكما كانت الحال سابقاً، وكما أصبح فيما بعد - هو المذياع عتيق الطراز. كما انتشرت من خلال التوزيع العالمى للصور؛ ومن خلال الاتصالات الشخصية عبر السياحة الشبابية، التى أدت إلى دخوله تدفقات صغيرة، وإن كانت متنامية، من الشباب من الجنسين، يرتدون الچينز، إلى جميع أنحاء العالم؛ ومن خلال الشبكة العالمية للجامعات، التى برزت فى الستينيات قدرتها على تنمية الاتصالات الدولية السريعة. وليس أقل من ذلك أنها انتشرت من خلال قوة "الموضة" فى المجتمع الاستهلاكى، والتى وصلت الآن إلى الجماهير بقدر من المبالغة يرجع إلى الضغوط القائمة داخل مجموعات الأقران. لقد ظهرت للوجود ثقافة شبابية عالمية.

هل كان يمكن أن تظهر فى أى فترة أخرى أكثر تبكيراً؟ كلا بالتأكيد. كانت دائرة أنصارها ستكون أصغر كثيراً، سواء نسبياً أم بشكل مطلق، إذ أن إطالة التعليم بحيث يستغرق كل الوقت - وخاصة مع وجود عدد كبير من الشباب والشابات يختلطون معاً كمجموعة عُمرية فى الجامعات - قد أسهم فى توسعها بدرجة كبيرة. وعلاوة على ذلك، حتى الشباب المراهق الذى دخل سوق العمل لكل الوقت فى سن مغادرته للمدرسة (يتراوح بين ١٤ و١٦ سنة فى بلد "متقدم" نمطى)، كان يمتلك قوة مستقلة

للإنفاق تفوق كثيراً ما كان لدى من سبقوه، وذلك بفضل ما تحقق من ازدهار وتوظيف كامل فى ظل العصر الذهبى؛ وبفضل الازدهار الذى حققه آباؤهم وجعل احتياجهم إلى مساهمة أبنائهم فى ميزانية الأسرة أقل. لقد كان اكتشاف هذه السوق الشبابية فى منتصف الخمسينيات هو الذى أدى إلى تثوير تجارة الموسيقى الشبابية الحديثة - موسيقى البوب (pop) - فضلاً عن نهاية السوق الضخم فى أوروبا المتعلقة بصناعة "الموضة". إن "ازدهار سن المراهقة" فى بريطانيا، حيث بدأ فى تلك الفترة، كان يرتكز على التمركز الحضرى للفتيات اللاتى يحصلن على أجور عالية نسبياً فى المكاتب والمحلات التى أخذت تنتشر، إذ امتلكن قدراً من النقود للإنفاق أكثر مما لدى الفتيان، كما كانت الفتيات فى تلك الأيام أقل ارتباطاً بالأنماط الذكورية التقليدية للإنفاق (البيرة والسجائر). إن الازدهار قد "كشف بداية عن قوته فى المجالات التى برزت فيها مشتروات الفتيات، مثل البلوزات، والتنورات، ومستحضرات التجميل، واسطوانات موسيقى البوب". (Allen, 1968, pp. 62-63)، ناهيك عن حفلات البوب الموسيقية التى كانت الفتيات أشهر حاضريها وأكثرهم استماعاً. ويمكن قياس قوة هذا المال الشبابى من خلال مبيعات الاسطوانات فى الولايات المتحدة، حيث ارتفعت من ٢٧٧ مليون دولار عام ١٩٥٥، عندما ظهر الروك، إلى ٦٠٠ مليون دولار عام ١٩٥٩، ثم إلى بليونين عام ١٩٧٣ (Hobsbawm, 1993, p, xxix). لقد كان كل عضو فى مجموعة عمرية تضم أفراداً تتراوح أعمارهم من ٥ إلى ١٩ سنة فى الولايات المتحدة ينفق فى عام ١٩٧٠ على الاسطوانات ما يعادل خمسة أضعاف المعدل عام ١٩٥٥. وكلما كان البلد أغنى، كلما تعاظمت تجارة الاسطوانات: أنفق شباب الولايات المتحدة، والسويد، وألمانيا الغربية، وهولندة، وبريطانيا مايزيد بمقدار ٧-١٠ أضعاف للفرد عن شباب البلدان الأفقر وإنما ذات نمو متسارع، مثل إيطاليا وأسبانيا.

إن قوة السوق المستقلة قد جعلت من الأيسر بالنسبة للشباب اكتشاف الرموز المادية أو الثقافية للهوية. ومع كل، فما أدى إلى زيادة حدة الخطوط العريضة لهذه الهوية كان الفجوة التاريخية الضخمة التى فصلت بين أجيال ما قبل عام ١٩٢٥ تقريباً، وبين أجيال ما بعد عام ١٩٥٠ تقريباً. إنها فجوة أكبر كثيراً من تلك الفجوة التى كانت تفصل بين الآباء والأبناء فى الماضى. لقد أصبح الآباء الذين لديهم أبناء مراهقين يعون ذلك بالفعل خلال الستينيات وبعدها. لقد عاش الشباب فى مجتمعات منقطعة الصلة بماضيها، سواء أكانت قد شهدت تحولاً عن طريق ثورة، كما حدث فى الصين أو يوغوسلافيا أو مصر؛ أم عن طريق غزو واحتلال، كما فى ألمانيا واليابان؛ أو

عن طريق التحرر من الكولونيالية. إنهم لايملكون ذاكرة حول عصر ما قبل الطوفان. وربماباستثناء الخبرة المشتركة لحرب وطنية كبرى - مثل ترابط الكبار والصغار معاً لفترة فى روسيا وبريطانيا - لم تكن لديهم أى وسيلة لفهم ما مر به الكبار من خبرات وما شعروا به من أحاسيس - حتى عندما كان الكبار مستعدين للحديث عن الماضى، فغالبية الألمان واليابانيين والفرنسيين ينفرون من القيام بذلك. كيف يمكن لشاب هندى، لم يكن الكونجرس يُمثل بالنسبة له سوى حكومة أو آلة سياسية، أن يفهم شخص كان الكونجرس (حزب المؤتمر الهندى) بالنسبة له تعبيراً عن أمة تناضل من أجل تحررها؟ بل وحتى كيف يمكن للاقتصاديين الهنود الشباب، الذين اكتسحوا أقسام الجامعات فى العالم، أن يفهموا مُدرسيهم الذين كان أقصى طموحهم فى الفترة الكولونيالية أن يصبحوا ببساطة "بمثل جودة" النماذج الميتروبوليتانيةأى تلك الشائعة فى العواصم الكبرى من البلدان الاستعمارية؟.

لقد أدى العصر الذهبى إلى توسيع هذه الفجوة، على الأقل حتى السبعينيات. كيف يمكن للفتيان والفتيات، الذين يكبرون فى ظل عصر التوظيف الكامل، أن يتفهموا خبرة الثلاثينيات؛ أو على العكس، كيف يتسنى للجيل الأكبر أن يتفهم الشباب الذين لم تكن الوظيفة تمثل بالنسبة لهم ملاذاً آمناً بعد الخوض فى بحار عاصفة (وخاصة وظيفة أمنة تضمن حقوق المعاش)، فى حين كانت تمثل شيئاً يمكنهم الحصول عليه فى أى وقت، بل والتخلى عنه فى أى وقت يشعر فيه الفرد برغبة فى الذهاب إلى نيبال لقضاء عدة أشهر؟ ولم يقتصر هذا النوع من الفجوات الجيلية على البلدان الصناعية، إذ أن الانحدار المذهل الذى شهدته المناطق الريفية قد خلق هوة مماثلة بين الجيل الريفى والجيل الذى كان ريفياً، وبين جيل العمل اليدوى وجيل العمل الآلى. إن أساتذة التاريخ الفرنسيين - الذين تربوا فى فرنسا، حيث كل منهم إما نشأ فى مزرعة أو أمضى أجازته فيها - اكتشفوا أن عليهم أن يشرحوا للطلبة فى السبعينيات كيف يبدو فناء مزرعة يضم كومة من الروث. والأكثر من ذلك، أن هذه الفجوة بين الأجيال قد أثرت حتى على أولئك الذين مروا بالأحداث السياسية الكبرى بالبلد، أو ليس لديهم آراء بعينها حول هذه الأحداث، إلا بقدر ما يتعلق الأمر بمدى تأثيره على حيواتهم الشخصية - وهؤلاء يشكلون أغلبية سكان العالم.

وبطبيعة الحال، فسواء مرت بهم هذه الأحداث أم لم تمر، فإن أغلبية سكان العالم هم الآن الأصغر سناً عن أى فترة سابقة. ففى الجزء الأكبر من العالم الثالث، حيث لم يحدث بعد التحول الديموغرافى من المعدل الأعلى للمواليد إلى المعدل الأدنى، فإن ما

بين خمس السكان ونصفهم فى أى فترة خلال النصف الثانى من القرن العشرين كان مُرجحاً أن يقل عن سن الرابعة عشر. ومع ذلك، فمهما كانت قوة روابطهم الأسرية، ومهما كانت قوة شبكة التقاليد الواقعين فى شباكها، لم يكن من الممكن إلا أن توجد فجوة هائلة بين فهمهم للحياة ولخبراتهم وتوقعاتهم، وبين فهم الأجيال الأكبر. إن الذين تعرضوا للنفى من جنوب أفريقيا وعادوا إلى بلدهم فى باكورة التسعينيات يمتلكون فهماً يختلف عن فهم "الرفاق" الشباب حول معنى النضال من أجل المؤتمر الوطنى الأفريقى؛ فهؤلاء الشباب حملوا نفس الراية فى المناطق الأفريقية (التى يشغلها غير المنحدرين من أصول أوروبية). وعلى العكس من ذلك، كيف يمكن للغالبية فى سويتو - الذين وُلِدوا بعد دخول نلسون مانديلا السجن - أن تعتبر مانديلا شيئاً آخر غير رمزاً معبود ؟ لقد كانت الفجوة بين الأجيال فى تلك البلدان أكبر، من نواح عديدة، مما كانت عليه الحال فى الغرب، حيث المؤسسات الدائمة والاستمرارية السياسية ربطت بين الكبار والصغار.

٣

لقد أصبحت الثقافة الشبابية منبت الثورة الثقافية بالمعنى الأوسع للثورة من زاوية السلوك والعادات ووسائل شغل أوقات الفراغ والفنون التجارية، التى تشكلت بتزايد الهواء الذى تنفسه الرجال والنساء فى الحضر. ومن هنا، فإنها تتسم بصفتين وثيقتى الصلة بما سبق. أنها انتشرت على المستوى الشعبى، وأنها كانت متناقضة، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك الشخصى. كان كل فرد "يقوم بمباشره أموره" مع حد أدنى من القيود الخارجية، على الرغم من أن ضغوط الأقران و"الموضة" كانت فى الممارسة مفروضة بنفس الاتساق السابق، على الأقل داخل مجموعات الأقران والثقافات الفرعية.

لم يكن جديداً فى حد ذاته أن الشرائح العليا وجدت أن تترك نفسها لتأثير ما وجدته بين "الناس". وحتى إذا تركنا جانباً الملكة مارى أنطوانيت التى أحبت دور عاملات محال اللبن، نجد الرومانسيين يعشقون الثقافة الشعبية الريفية والموسيقى الشعبية والرقص الشعبى؛ وكان أكثر مثقفيهم غرابة (بودلير) مفتوناً بالحنين لأخاديد المياه؛ كما كان كثير من الڤيكتوريين يرون أن ممارسة الجنس مع شخص ينتمى لمرتبة أدنى (حيث يعتمد نوع الجنس على الذوق الشخصى)، مُرضياً بصورة استثنائية. (ولم تنقرض هذه المشاعر تماماً فى القرن العشرين). وفى عصر الامبراطورية، بدأت التأثيرات الثقافية تتحرك للمرة الأولى متجهة للصعود باضطراد (راجع "عصر

الامبراطورية"، الفصل التاسع)، سواء من خلال التأثير القوى للفنون العامية (plebeian arts) حديثة التطور، أم من خلال السينما التى تُعد وسيلة الترفيه من الدرجة الأولى لسوق ضخمة مع ذلك، فقد ظلت غالبية وسائل الترفيه العامة والتجارية، فى الفترة الواقعة بين الحربين، خاضعة لهيمنة الطبقة الوسطى، أو وُضعت تحت مظلتها، بأشكال عديدة. وفوق كل شئ، كانت صناعة هوليود الكلاسيكية للسينما تحظى بالاحترام. كانت الصورة الأمريكية حول "قيم الأسرة" الراسخة بمثابة مثلُها الأعلى الاجتماعى، وكانت الكنيسة الصغيرة التى تلعب دوراً وطنياً بمثابة ايديولوچيتها. وعندما كانت تكتشف، فى سعيها خلف طابور شباك التذاكر، وجود نوع أدبى لايتفق والعالم الأخلاقى لأفلام "أندى هاردى" الخمسة عشر (١٩٣٧ - ١٩٤٧) - التى فازت بجائزة الأكاديمية لما قامت به من "تعزيز لأسلوب الحياة الأمريكى" (Halliwell, 1988, p. 321) - مثل أفلام العصابات وقاطعى الطرق، التى ظهرت فى فترة مبكرة وكانت تنطوى على مخاطرة إضفاء طابع مثالى على مُنتهكى القانون، فإنها سرعان ما كانت تستعيد النظام الأخلاقى، من حيث كونه ليس فى أيد أمينة بالفعل - أى قانون إنتاج هوليود (١٩٣٤ - ١٩٦٦)، الذى حدد الوقت المسموح به لعرض قبلات على الشاشة (والأفواه مغلقة) بمدة يصل حدها الأقصى إلى ثلاثين ثانية. أما الانتصارات الكبرى التى حققتها هوليود - مثل فيلم "ذهب مع الريح" - فقد كانت ترتكز على روايات مُعدة للقُراء متوسطى الثقافة من الطبقة الوسطى؛ كما كانت تنتمى إلى عالم ثقافى راسخ، مثل Vanity Fair« سوق المتعة » لثاكرى، أو Cyrano de Bergerac (سيرانو دى برجراك)لإدموند روستاند. ولم تكن سوى الأنواع الفوضوية وذات الطبيعة الشعبية للمسرحيات الهزلية (vaudville) والأفلام الكوميدية التى وُلدت فى السيرك، هى التى قاومت لفترة من الوقت عملية إضفاء الطابع الارستقراطى، على الرغم من تراجعها فى الثلاثينيات تحت ضغط boulevard genre - "الكوميديا المجنونة" بهوليود.

ومرة أخرى، فإن أفلام برودواى "الموسيقية" الظافرة، فى سنوات مابين الحربين، والأنغام الراقصة وأغانيها، كانت تُعتبر نوعاً أدبياً برجوازياً، رغم أنه لم يكن من الممكن تصوره بدون تأثير الچاز (jazz). لقد كان هذا النوع يُكتب لجمهور الطبقة الوسطى فى نيويورك، وكانت نصوصه الأوبرالية (librettos) وكلمات أغانيه موجهة بوضوح إلى جمهور بالغ اعتبر نفسه من المثقفين المتحررين رفيعى الثقافة فى الحضر. إن مقارنة سريعة بين كلمات أغانى كول پورتر وكلمات أغانى فريق رولينج ستونز يمكن أن توضح هذه النقطة. ومثله مثل العصر الذهبى لهوليود، ارتكز العصر

الذهبى لبرودواى على التعايش بين ما هو عامى وما يتمتع بالاحترام، ولكنه لم يكن منتشراً على المستوى الشعبى.

والجديد فى الخمسينيات أن شباب الطبقتين العليا والوسطى - على الأقل فى العالم الأنجلو ساكسونى الذى كان يحدد المزاج العالمى بصورة متزايدة - قد بدأ فى قبول موسيقى وملابس، بل وحتى لغة، الطبقات الدنيا فى الحضر، أو ما بدا أنه كذلك، باعتبارها نموذجاً لهم. لقد كانت موسيقى الروك أكثر الأمثلة بروزاً. وفى منتصف الخمسينيات، تفجرت فجأة من جيتو موسيقى "الرس" (Race) و"الريثم والبلوز" (Rhythm and Blues)كتالوجات شركات الاسطوانات الأمريكية، مستهدفة الفقراء السود بالولايات المتحدة، لتصبح الأسلوب المميز العالمى للشباب، وبوجه خاص الشباب البيض. لقد كان المتأنقون من شباب الطبقة العاملة فى الماضى، يتخذون أنماطهم أحياناً من قمة "الموضة" لدى الشرائح الاجتماعية العليا، أو من الثقافات الفرعية للطبقة الوسطى مثل البوهيمية الفنية. وكان الأمر متزايداً بصورة أكبر لدى فتيات الطبقة العاملة. والآن، يبدو أن ما يحدث هو تحول عكسى لافت للنظر. فقد أسس سوق "الموضة" لشباب العامة استقلاله، وبدأ فى تحديد مزاج السوق الارستقراطى. ومع تقدم ارتداء الجينز (للجنسين)، تراجعت بيوت الأزياء الباريسية، أو بالأحرى قبلت الهزيمة بموافقتها استخدام اسمائها المرموقة لبيع منتجات السوق الضخمة، سواء بشكل مباشر أو بترخيص. وبالمناسبة، كان عام ١٩٦٥ أول عام تُنتج فيه صناعة الأزياء النسائية الباريسية عدداً من البنطلونات يزيد على عدد التنورات (Veillon, p. 6). وقد أخذ الشباب الارستقراطى فى إسقاط أساليب نُطق الكلمات، والتى كانت تحدد فى بريطانيا أفراد طبقتهم بما لايدع مجالاً للخطأ، وبدأوا فى الكلام بلغة تقترب من أسلوب حديث الطبقة العاملة اللندنية.(٢) كما بدأ الشباب من الرجال الذين يتمتعون بالاحترام - وعلى نحو متزايد النساء الشابات أيضاً - فى محاكاة ما كان فى يوم ما "موضة" النعرة الرجولية التى انتشرت بين العمال اليدويين والجنود وأمثالهم، ولم تكن تحظى بالاحترام على الإطلاق، فضلاً عن الاستخدام العادى للكلمات الفاحشة فى المحادثة. ولم يتخلف الأدب عن المجاراة: هناك ناقد مسرحى ألمعى جلب كلمةوهى «الفعل الجنسى» fuck البذيئة إلى جمهور الإذاعة. وللمرة الأولى فى تاريخ الحواديت، أصبحت سندريلا حسناء الحفلة الراقصة بعدم ارتدائها ملابس رائعة.

إن هذا التحول شعبى الطابع فى أذواق شباب الطبقتين الوسطى والعليا فى عالم الغرب - والذى كان له أيضاً مايوازيه حتى فى العالم الثالث، مع تفوق المثقفين البرازيليين فى رقصة السامبا(٣) - قد تربطه أو لاتربطه علاقة باندفاع الطلاب

المنتمين للطبقة الوسطى نحو السياسة الثورية والأيديولوچيا الثورية بعد ذلك بعدة سنوات. إن "الموضة" عادة ما تكون تنبؤية، ولا أحد يعرف كيف. لقد تعزز ذلك بالتأكيد بين الشباب الذكور، فى مناخ الليبرالية الجديد، عن طريق ظهور ثقافة فرعية للمثلية الجنسية ذات أهمية فردية كاتجاه فى "الموضة" والفن. ومع كل، ربما ليس من الضرورى الافتراض ماهو أكثر من أن النمط شعبى الطابع كان طريقة مناسبة لرفض قيم أجيال الآباء، أو كان - توخياً لمزيد من الدقة - لغة يمكن للشباب من خلالها أن يتلمس طريقه فى التعامل مع عالم لم تُعد فيه قواعد وقيم الكبار مناسبة.

إن التناقض الجوهرى لدى الثقافة الشبابية الجديدة قد ظهر بأوضح تجلياته فى اللحظات التى وجدت فيها هذه الثقافة تعبيرها الفكرى، كما هى الحال فى الملصقات الفورية الشهيرة لأيام مايو ١٩٦٨ الپاريسية: "الحظر محظور"؛ وفى المثل الذى أطلقه چيرى روبين الراديكالى الأمريكى أن الفرد لاينبغى أن يثق فى أحد لم يقض مدة (فى السجن) (Wiener, 1984, p. 204). وبما يتناقض مع النظرة الأولى، لم تكن هذه العبارات سياسية بالمعنى التقليدى - حتى بالمعنى الضيق المتعلق باستهداف التخلص من القوانين القمعية. لم يكن ذلك هدفهم. لقد كانت تلك العبارات تصريحات علنية عن مشاعر ورغبات شخصية. وكما كان الأمر مطروحاً فى إحدى شعارات مايو ١٩٦٨: "إننى أعتبر رغباتى واقعية، إذ أننى أؤمن بواقعية رغباتى" (Katsiaficas, 1987, p. 101). وحتى عندما اجتمعت هذه المظاهر والمجموعات والحركات - فيما كان يشابه التمرد الجماهيرى، بل وكان له هذا التأثير فى بعض الأحيان - كانت الذاتية تحتل موقع القلب فى كل هذه الأمور. إن شعار "الشخصى هو السياسى" قد أصبح شعاراً مهماً فى التوجه النسوى الجديد، وربما كان أكثر نتائج سنوات الراديكالية استمراراً. لقد كان الشعار يعنى ببساطة ما هو أكثر من أن الالتزام السياسى له دوافع شخصية ويحقق الرضا الشخصى، وأن معيار النجاح السياسى هو مدى تأثيره فى الناس. وفى بعض الشهور كان يعنى ببساطة "سوف أُطلِق على أى شئ يقلقنى أنه سياسى"، كما جاء فى عنوان واحد من الكتب التى ظهرت فى السبعينيات (Fat is a Feminist Issue) - "السمنة هى قضية نسوية" - (Orbach, 1978).

إن شعار مايو ١٩٦٨ "عندما أفكر فى الثورة أود ممارسة الحب" كان لابد أن يبعث على الحيرة ليس فقط لدى لينين وإنما أيضاً لدى روث فيشر - المناضل الشيوعى الشاب فى ڤيينا، الذى هاجم لينين فى زمن بطولاته فى العلاقات الجنسية غير الشرعية (Zetkin, 1968, pp. 28ff). ومع كل، وعلى العكس من ذلك، فحتى

بالنسبة لأى راديكالى يتسم بالوعى السياسى التقليدى وينتمى للاتجاه الماركسى اللينينى الجديد فى الستينيات والسبعينيات، كان الكومنترن الذى صوره برخت - وكأنه تأخر على مسافر أخذ يمارس الحُب وذهنه مشغول بأشياء أخرى، فى العمل ("Der Liebe pflegte ich achtlos" - Brecht, 1976, II, p. 722) - يمكن لهذا العميل أن يكون شخصاً غامضاً وغير مفهوم بالنسبة لهؤلاء الذين لم يكونوا معنيين بما يأمل الثوريون فى تحقيقه من أهداف خلال نشاطهم، وإنما ما قاموا به وما شعروا به عند قيامهم به. حيث لم يكن فصل فعل الحب عن الثورة وارداً.

وبالتالى، سار التحرر الشخصى والتحرر الاجتماعى معاً فى طريق واحد؛ وهى أكثر الطرق بداهة بالنسبة لهم لتحطيم روابط الدولة، وهدم سلطة الآباء والجيران، والقانون والعُرف، والجنس والمخدرات. وأما الجانب الشخصى فلم يكن يحتاج للاكتشاف بأشكاله المتعددة. لقد قال الشاعر السوداوى المُحافظ: "بدأت الممارسة الجنسية فى عام ١٩٦٣" (Larkin, 1988, p. 167)، ولم يكن يعنى بذلك أن مثل هذه الممارسة لم تكن شائعة قبل ١٩٦٣، أو حتى أنه لم يعتدها، بل كان يعنى أن هذا النشاط قد غيّر من طابعه العام مع محاكمة "ليدى تشاترلى"* لقد كان من اليسير إطلاق تلك التلميحات ضد الأساليب القديمة، حيثما تواجد نشاط كان محظوراً فى السابق. أما حيثما تواجد نشاط كان مُجازاً فى السابق، سواء على نحو رسمى أم غير رسمى، مثل علاقات المثلية الجنسية أو المساحقة بين الإناث، فانه كان فى حاجة إلى تأكيد ولهذا، فإن التزاماً عاماً بالمحظور أو غير العُرفى الذى ("يجرى إنتاجه) حتى الآن، يحظى بأهمية خاصة. ومن الناحية الأخرى، فإن المخدرات - ماعدا بالنسبة للكحول والتبغ - كانت ماتزال مقصورة على ثقافات فرعية محدودة لكل من المجتمع العلوى، وقاع المدنية والهامشى، و لكنها لم تستفد من التشريعات التى يمكن أن تجيزها. ولم يكن انتشارها علامة على التمرد فحسب، فالأحاسيس التى ولدتها تتسم بقدر كاف من الجاذبية. ومع ذلك، فقد كان استخدام المخدرات، بالتعريف القانونى، نشاطاً محظوراً. وربما لأن المادة المُخدرة التى كانت أكثر انتشاراً بين الشباب الغربى - الماريجوانا - كانت أقل ضرراً من المواد الكحولية والتبغ، فلم يكن تدخينها (وهو نشاط اجتماعى

(×) عندما انتهى د.هـ. لورنس من روايته ليدى تشاترلى سنة ١٩٢٨ رفضت دور النشر طبعها، ثم طبعت فى نيويورك وتعرضت للمصادرة، وفى أغسطس ١٩٦٠ أعلنت سلسلة بنجوين أنها سوف تنشر الرواية، فحرك النائب العام دعوى لمصادرتها استناداً إلى قانون المطبوعات البذيئة وعند نظر القضية احتشد ٣٥ من الكتاب المرموقين ودافعوا عن الرواية وبعد خمس جلسات صدر حكم المحكمة ببراءة الرواية من البذاءة فى ٢ نوفمبر ١٩٦٢. (المحررة)

نمطى) مجرد نوع من التحدى، وإنما لإظهار التفوق على من حظروها. وعلى الشواطئ العاصفة فى أمريكا الستينيات، وأينما كان يلتقى أنصار موسيقى الروك والطلاب الراديكاليون، عادة ما كان الخط الفاصل بين التعرُض للرجم وبناء المتاريس يبدو ضبابياً.

شهد ميدان السلوك المقبول على المستوى العام توسعاً، بما فى ذلك السلوك الجنسى؛ وهو ربما أدى إلى تزايد التجريب وتواتر السلوك الذى كان مايزال يقع فى عداد غير المقبول أو المنحرف، مما أسهم بالتأكيد فى تزايد رؤيته. وهكذا، فإن الثقافة الفرعية المتعلقة بممارسة المثلية الجنسية فى الولايات المتحدة - حتى فى مدينتى سان فرانسيسكو ونيويورك، اللتين أرستا هذا الاتجاه وتبادلتا التأثير - لم تبرز حتى بدأت الستينيات؛ ولم تبرز كمجموعة ضغط سياسى فى هاتين المدينتين إلا مع السبعينيات (Duberman et al., 1989, p. 460). ومع كل، فقد تمثلت الدلالة الأساسية لهذه التغيرات، سواء بشكل مباشر أو ضمنى، فى رفض التنظيم التاريخى القديم المتجذر للعلاقات الإنسانية فى المجتمع، والتى عبّرت عنها وأجازتها ورمزت إليها الأعراف والمحظورات.

والأكثر دلالة أن هذا الرفض لم يتم باسم نمط آخر لتنظيم المجتمع، على الرغم من أن نزعة الحرية كانت قد منحت تبريراً ايديولوجياً عبر أولئك الذين شعروا بالحاجة إلى مثل هذه التسميات (٤)، وإنما باسم الاستقلال غير المحدود للرغبة الفردية. كان الافتراض يتمثل فى عالم الفردية ذاتية التنظيم، التى جرى دفعها إلى نهاية حدودها. وتكمن المفارقة فى هذا الوضع من حقيقة أن التمردات المضادة للأعراف والقيود شاركت فى الافتراضات التى تأسس عليها المجتمع الاستهلاكى، أو على الأقل الدوافع السيكولوچية التى وجدها أولئك الذين كانوا يبيعون السلع والخدمات الاستهلاكية أكثر جاذبية للمشترين وفاعلية لبيع منتجاتهم.

كان من المُفتَرَض ضمنياً أن العالم يتكون من عدة بلايين من البشر، يحدوهم سعيهم لتحقيق رغباتهم الفردية، بما فى ذلك الرغبات التى كانت حتى ذلك الحين محظورة أو موضوعاً للاستنكار، ولكنها أصبحت مُباحة الآن - ليس لأنها باتت مقبولة أخلاقياً، وإنما لأنها كانت موجودة من قبل وقام البعض بإشباعها.

وهكذا، فحتى التسعينيات كانت اللبرلة الرسمية قاصرة عن تقنين المخدرات. واستمرت المخدرات محظورة، بدرجات مختلفة من الشدة ودرجة عالية من اللافاعلية. فقد تطور، منذ الستينيات، وبسرعة كبيرة، سوق ضخم للكوكايين، وأساساً بين

الطبقات الوسطى المزدهرة فى شمال أفريقيا، ثم فى أوروبا الغربية بعد ذلك بفترة وجيزة. وقد أدى ذلك، مثله مثل النمو العام الأبكر فى سوق الهيروين (أساساً فى أمريكا الشمالية)، إلى تحويل الجريمة، للمرة الأولى، إلى تجارة كبيرة (Arlacchi, 1983, pp. 215, 208).

٤

وعلى هذا النحو، يمكن فهم الثورة الثقافية فى القرن العشرين باعتبارها انتصاراً للفرد على المجتمع، أو بالأحرى تقطيعاً للخيوط التى كانت فى الماضى تغزل الإنسان فى النسيج المجتمعى. ولم تكن الأنسجة الاجتماعية تتكون فحسب من العلاقات الفعلية القائمة بين البشر وأشكال تنظيمهم، وإنما أيضاً من النماذج العامة لهذه العلاقات، فضلاً عن الأنماط المتوقّعة لسلوك الناس تجاه بعضهم البعض؛ فقد كانت أدوارهم موصوفة وإن لم تكن دائماً مدونة. ومن ثم، نجد الشعور الجريح بعدم الأمان ، عندما تنقلب الأعراف القديمة للسلوك أو تفقد منطقها، أو عندما تحدث حالة من عدم الفهم بين أولئك الذين شعروا بهذا الفقدان وأولئك الذين كانو أصغر من أن يعرفوا أى شئ لم يجدوا إلا مجتمعاً متدنياً.

لقد قام باحث انثروبولوچى برازيلى فى الثمانينيات بوصف توتر رجال الطبقة الوسطى، المشبعة بثقافة الأبيض المتوسط بشأن الشرف والعار. وقد واجه الحادثة التى كانت شائعة حينذاك، عندما تعرض له لصوص طلبوا أمواله وهددوه باغتصاب حبيبته. وفى ظل هذه الظروف، كان من المتوقع دائماً من "الچنتلمان" أن يدافع عن المرأة، إن لم يكن النقود، كثمن لحياته؛ فالمرأة تفضل الموت عن ملاقاة مصير يُقال عنه فى الأمثال بأنه "أسوأ من الموت". ومع ذلك، لم يكن من المرجح، فى واقع المدن الكبرى فى نهايات القرن العشرين، أن المقاومة يمكن أن تنقذ "شرف" المرأة أو النقود. وقد كان التسليم بمثابة السياسة العقلانية فى مثل هذه الظروف، وذلك للحيلولة دون أن يفقد المعتدون صوابهم ويرتكبون حماقة حقيقية أو حتى جريمة قتل. أما بالنسبة لشرف المرأة، المُعرّف تقليدياً بالبكارة قبل الزواج والإخلاص التام بعد الزواج، فما الذى كان يمكن أن يجرى تحديداً الدفاع عنه من جانب الرجال والنساء، على ضوء فرضيات السلوك الجنسى وواقع الممارسات التى كانت سائدة بين المتعلمين والمتحررين فى الثمانينيات؟ ومع كل، وكما أوضحت دراسات الباحث الانثروبولوچى، لا يثير

الدهشة أن ذلك لم يقلل من جراح المأزق. وهناك مواقف أقل تطرفاً يمكن أن تسفر عن حالة عدم أمان ومعاناة ذهنية - على سبيل المثال اللقاءات الجنسية العادية. إن البديل لعادة قديمة، مهما كان غير معقول، يمكن أن يتحول لا لأن يصبح عادة جديدة أو سلوك عقلانى، وإنما إلى انتفاء كامل للقواعد، أو على الأقل عدم الاتفاق حول ما يجدر القيام به.

وفى غالبية أنحاء العالم، نجد أن الأنسجة الاجتماعية والعادات القديمة، رغم البخس من قيمتها عبر رُبع قرن من التحول الاجتماعى والاقتصادى غير المتوازى، كانت متوترة، وإن كانت لم تصل بعد إلى التفسخ. كان ذلك من حسن طالع غالبية البشر، وخاصة الفقراء، طالما أن شبكة القرابة والجماعة والجيرة كانت جوهرية للبقاء الاقتصادى، وبوجه خاص لإحراز النجاح فى عالم متغير. لقد كانت تباشر عملها، فى العديد من أنحاء العالم الثالث، كتركيب يضم خدمات المعلومات، وتبادل العمالة، ومُجمع للعمل ورأس المال، وآلية للادخار، ونظام للضمان الاجتماعى. وبدون الأسر المتماسكة يصعب، بطبيعة الحال، تفسير النجاحات الاقتصادية لبعض أجزاء من العالم - مثل الشرق الأدنى.

أما فى المجتمعات الأكثر تقليدية، فيمكن أن تظهر التوترات فى الأساس بقدر ما أدى انتصار اقتصاد الأعمال التجارية إلى الانتقاص من مشروعية النظام الاجتماعى الذى كان مقبولاً حينذاك والمرتكز على التفاوت، ذلك أن الطموحات أصبحت أكثر مساواتية، كما اضمحلت المبررات العملية للتفاوت. ومن ثم، فإن ثروة الراجا الهندى (مثلها مثل الحصانة المعروفة إزاء الضرائب على ثروة العائلة المالكة البريطانية، والتى لم تواجه معارضة حتى التسعينيات) لم تتعرض للحسد أو الامتعاض من جانب رعاياه، فى حين يمكن أن يتعرض الإنسان لذلك من جاره. لقد كان الأمراء الهنود ينتمون إلى دورهم الخاص فى النظام الاجتماعى - وربما حتى الكونى - وكانوا علامات دالة عليه؛ وهو الدور الذى كان من المعتقد أنه يضون عالمهم ويحقق استقراره، وبالتأكيد يضفى عليه رمزيته. وفى نمط مختلف إلى حد ما، نجد أن المميزات الكبيرة والحياة المترفة التى تمتع بهما ملوك الأعمال التجارية اليابانيين كانت غير مقبولة بدرجة أقل، طالما لم يكن يُنظر إليها كثروة مُخصصة فردياً، وإنما أساساً كلواحق لمواقعهم الرسمية فى الاقتصاد، بالأحرى مثل الحياة المترفة لأعضاء مجلس الوزراء البريطانى - سيارات الليموزين، والمساكن الخاصة، ... ألخ - التى كان يتم سحبها فى غضون ساعات قليلة بعد توقف أى منهم عن شغل موقعه. إن التوزيع الفعلى للدخول

فى اليابان ، كما نعرف، كان أقل تفاوتاً بدرجة كبيرة عما عليه الحال فى مجتمعات الأعمال بالغرب. ومع كل، فالمراقب للوضع اليابانى فى الثمانينيات، حتى من بعيد، بالكاد ما يمكنه تجنب الخروج بانطباع أن هذا التراكم المحض للثروة الشخصية، أثناء سنوات الازدهار العشر، وبروزه على المستوى العام، قد جعل التناقض أكثر وضوحاً بين ظروف حياة المواطن اليابانى العادى فى بيته - وهى أكثر تواضعاً عن حياة نظيره فى الغرب - وبين ظروف حياة اليابانى الثرى. وربما للمرة الأولى لم يعُد أياً منهم يحظى بحماية كافية من جانب ما كان يُعتبر مميزات مشروعة تقترن بخدمة الدولة والمجتمع.

لقد خلقت عقود الثورة الثقافية فى الغرب فوضى شديدة. وتبدو الحدود القصوى من هذا الانهيار أيسر وضوحاً فى الخطاب الايديولوچى العلنى لنهاية القرن فى الغرب، وبوجه خاص فى التصريحات العلنية التى، بينما لم تزعم عُمقاً تحليلياً، قد صيغت من زاوية المعتقدات الأوسع انتشاراً. ويفكر المرء فى تلك الحجة التى كانت شائعة فى فترة ما لدى بعض الدوائر النسوية، أن عمل المرأة المنزلى ينبغى حسابه (بل ودفع أجرته عند الضرورة) بسعر السوق؛ أو تبرير إجراء إصلاح فى مجال الإجهاض، من زاوية "حق الاختيار" المجرد وغير المحدود للفرد (المرأة).[٥] وقد نال هذا الخطاب تشجيعاً نتيجة للتأثير المنتشر للاقتصادات الكلاسيكية الجديدة، التى اتخذت فى المجتمعات الغربية العلمانية مكان الثيولوچيا بصورة متزايدة، فضلاً عن تأثير فلسفة التشريع الأمريكية ذات الطابع الفردى المُفرط (من خلال الهيمنة الثقافية للولايات المتحدة). كما وجد تعبيره السياسى فى عبارة رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر: "لا يوجد مجتمع، وإنما فقط أفراد".

ومع ذلك، ومهما كان الإفراط فى النظرية، كانت الممارَسة مُفرطة أيضاً بنفس القدر. وفى فترة ما من السبعينيات، اصطدمت الإصلاحات الاقتصادية فى البلدان الأنجلو-ساكسونية (كما كان الباحثون يصطدمون على نحو دورى) بآثار التصنيع على المرضى العقليين أو ضعاف العقول. وقد نجحت هذه الإصلاحات فى شن حملات لإخراج أكبر قدر منهم خارج دائرة الاحتجاز المرضى حتى "يتمتعوا بالرعاية فى المجتمعات". ولكن مدن الغرب لم تعُد تضم مجتمعات لرعايتهم. لايوجد أقرباء. ولايوجد من يعرفهم. كانت توجد فقط طرقات بعض المدن، مثل نيويورك، مليئة بالشحاذين الذين لا مأوى لهم، يحملون أكياساً بلاستيكية ويومئون ويتحدثون إلى أنفسهم. وإذا كانوا سعداء أو تعساء الحظ (يتوقف الأمر على وجهة النظر)، فإنهم ينتقلون فى

النهاية من المستشفيات التى طردتهم إلى السجون التى أصبحت، فى الولايات المتحدة، بمثابة الوعاء الرئيسى للمشكلات المجتمعية فى المجتمع الأمريكى، وخاصة قطاعه الأسود. وقيل أن ١٥٪ ممن كانوا نسبياً أكبر عدد من السجناء فى العالم – ٤٢٦ سجيناً كل مائة ألف نسمة – عام ١٩٩١، كانوا من المرضى العقليين. (Walker, 1991; Human Development, 1991, p. 32, Fig. 2.10).

لقد كانت الأسرة التقليدية والكنائس تقليدية التنظيم هما أكثر المؤسسات تعرُضاً للتقويض فى الغرب نتيجة للنزعة الفردية الجديدة؛ وقد تعرضتا لانهيار كبير فى الثُلث الأخير من القرن. لقد تقوض، وبسرعة مذهلة، الأساس الذى كانت ترتكز عليه مجتمعات الكاثوليك الرومان. ففى مجرى أعوام الستينيات، انخفض حضور القداس فى كويبيك (كندا) من ٨٠٪ إلى ٢٠٪؛ كما انخفض معدل المواليد الفرنسى-الكندى عن المعدل المتوسط فى كندا، رغم أنه كان أعلى منه فى العادة (Bernier/Boily, 1986). إن تحرر المرأة – أو توخياً لمزيد من الدقة، مطالب المرأة بشأن تنظيم المواليد، بما فى ذلك الإجهاض وحق الطلاق – ربما أدى إلى تشييد أعمق حاجز بين الكنيسة وبين ما كان قد أصبح فى القرن التاسع عشر المخزون الأساسى للتدين أى النساء (راجع: Age of Capital)؛ وقد ازداد الأمر وضوحاً فى البلدان الكاثوليكية سيئة الصيت مثل ايرلندة وأيطاليا البابا، بل وحتى فى بولندة – بعد سقوط الشيوعية. أما المهن المرتبطة بالكهانة، وغيرها من أشكال الحياة الدينية، فقد هبطت من أعلى برج الكنيسة؛ كما كان الحال بالنسبة للرغبة فى حياة العزوبة، فعلياً أو رسمياً. وبإيجاز، وسواء للأفضل أو للأسوأ، توارت السلطة المعنوية والمادية للكنيسة على المتدينين داخل الثقب الأسود الذى انفتح بين قواعدها الحياتية وأخلاقياتها وبين واقع سلوك أواخر القرن العشرين. كما انحدرت أيضاً، وحتى على نحو أسرع، الكنائس الغربية، التى كانت قبضتها على أعضائها أقل سطوة، بما فى ذلك حتى بعض الطوائف البروتوستانتية القديمة.

وربما كانت الآثار المادية المترتبة على تخفيف الروابط الأسرية التقليدية أقل خطورة. فكما رأينا، لم تحتفظ الأسرة بوضعها السابق فحسب – كونها أداة لإعادة إنتاج نفسها – وإنما أصبحت أيضاً أداة للتعاون الاجتماعى. وبهذه الكيفية، كان من الجوهرى الحفاظ على كل من الاقتصادات الزراعية والاقتصادات الصناعية المبكرة، أى المحلى والعالمى. ويرجع ذلك جزئياً إلى عدم تطور بنية رأسمالية لاشخصية ملائمة قبل

أن يبدأ تمركز رأس المال ونهوض الأعمال الكبرى فى توليد المؤسسة المتحدة الحديثة فى نهاية القرن التاسع عشر - تلك "اليد المرئية" (Chandler, 1977) التى استكملت "اليد الخفية" للسوق[٦] وفقاً لطرح آدم سميث. ولكن سبباً أقوى كان يتمثل فى أن السوق بذاته لم يحتاط لهذا العنصر المركزى فى أى نظام خاص يستهدف الربح، وتحديداً التروست[×]؛ أو مُكافِئه القانونى: أداء التعاقد. وقد كان ذلك يتطلب إما سلطة الدولة (كما كان يعرفها جيداً مُنَظِرو النزعة الفردية السياسيون فى القرن السابع عشر)، أو روابط القرابة أو الجماعة. وهكذا، كانت التجارة والعمليات المصرفية والتمويلات الدولية - وهى مجالات لأنشطة بعيدة مكانياً فى بعض الأحيان، وذات عائد كبير، وغير آمنة بدرجة هائلة - تجرى إدارتها بنجاح عن طريق كيانات أصحاب الأعمال الذين تربط بينهم صلات القرابة، ومن المُفضل انتماؤهم لمجموعات تتسم بتضامن دينى خاص - مثل اليهود، أو الكويكرز، أو الهوجونوتيون[××]. وفى الواقع، كانت مثل هذه الروابط ماتزال، حتى فى أواخر القرن العشرين، لا غنى عنها فى الأعمال الإجرامية، والتى لم تكن تُرتكَب ضد القانون فحسب، وإنما أيضاً خارج نطاق حمايته. ففى وضع لايوجد فيه أى شئ يمكن أن يضمن التعاقدات، كانت القرابة وتهديد الموت هما فقط الضامنان. ولهذا، كانت أنجح عائلات المافيا فى كالابرى تتكون من مجموعة قوية من الأشقاء (Ciconte, 1992, pp. 361-62).

ومع كل، فإن هذه الروابط والتضامنات غير الاقتصادية التى تضم هذه الجماعات قد تقوضت الآن، كما حدث بالنسبة للنُظم الأخلاقية التى سارت معها. وقد كانت هى الأخرى أكبرَ سناً من المجتمع البرجوازى الصناعى الحديث، لكنها شهدت أيضاً تعديلاً بحيث تُشكل جزءاً جوهرياً منه. إن الألفاظ الأخلاقية القديمة التى تعبر عن الحقوق والواجبات، والالتزامات المتبادلة، والخطيئة والفضيلة، والتضحية، والضمير، والثواب والعقاب، لم يعُد يمكن ترجمتها إلى اللغة الجديدة المتعلقة بالرضا المنشود. ولما لم تعُد هذه الممارسات والمؤسسات مقبولة كجزء من أسلوب تنظيم المجتمع الذى يربط الناس ببعضهم البعض ويضمن التعاون الاجتماعى وإعادة الانتاج، تلاشت أغلب قدرتها على هيكلة حياة الإنسان الاجتماعية. لقد تقلصت إلى مجرد تعبيرات عن تفضيلات الأفراد، والمزاعم المتعلقة بضرورة إقرار القانون سيادة هذه التفضيلات.[٧] لقد كان التهديد بعدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ قائماً. لم تعُد إبرة البوصلة

(×) التروست : الاتحاد الاحتكارى بين الشركات - المترجم

(××) الهوجونوتى (Huguenot) : البروتوستانتى الفرنسى - المترجم.

تشير نحو الشمال، وأصبحت الخرائط عديمة الجدوى. هذا ما ازداد وضوحاً فى أغلب البلدان المتقدمة بدءاً من الستينيات وما بعدها. وقد وجد تعبيره الايديولوچى فى مجموعة من النظريات - من أقصى الليبرالية للسوق الحر إلى "ما بعد الحداثة" وما شابهها - والتى حاولت تجنُب مشكلة الحُكم والقيم برمتها، أو بالأحرى تقليصها إلى قاسم مشترك منفرد لحرية الفرد غير المُقيدة.

بداية، بطبيعة الحال، بدت ميزات الليبرالية الاجتماعية فى جملتها ضخمة بالنسبة للجميع ماعدا الرجعيين المتأصلين، وبدت تكلفتها محدودة؛ كما لم يكن بادياً أنها تنطوى على الليبرالية الاقتصادية. إن المدّ العظيم للإزدهار الذى غمر سكان المناطق المُفضلة فى العالم، وتعزز من خلال نُظم الضمان الاجتماعى العامة التى كانت شاملة وسخية، كان يزيل حطام التفسخ الاجتماعى. لقد كان الوالد المنفرد (مثلت الأمهات المنفردات الأغلبية الساحقة) مايزال، بدرجة كبيرة، أفضل ضمان لحياة الفقر، لكنه فى دول الرفاه الحديثة كان ضماناً أيضاً للحد الأدنى من الرزق والمأوى. أما المعاشات وخدمات الرفاه، وفى النهاية عنابر الشيخوخة، كانت تتولى رعاية كبار السن المنعزلين، الذين ليس بمقدور أبنائهم رعايتهم، أو لم يعُد أبناؤهم يشعرون بالالتزام نحو رعايتهم، فى شيخوختهم. لقد بدا طبيعياً التعامل مع الاحتمالات الطارئة الأخرى التى كانت يوماً ما جزءاً من النظام الأُسرى بنفس الطريقة؛ على سبيل المثال بنقل عبء رعاية الأطفال من الأم إلى دور الحضانة، وهو الأمر الذى طالب به منذ أمد بعيد الاشتراكيون الذين كانوا يعنون باحتياجات الأمهات اللاتى يكسبن رزقهن.

لقد كانت كل من الحسابات العقلانية والتطورات التاريخية تشير إلى نفس الاتجاه، مثلها مثل مختلف أنواع الايديولوچية التقدمية، بما يشتمل على كل أولئك الذين انتقدوا الأسرة التقليدية على اعتبار أنها أدت إلى تأبيد خضوع المرأة أو الأبناء - سواء الأطفال أوالمراهقين - أو على أساس اعتبارات المساواة العامة. ومن الناحية المادية، كانت الإمدادات العامة تتفوق بداهة على ما يمكن أن توفره الأُسر لنفسها من إمدادات، إما بسبب الفقر أو لأسباب أخرى. إن خروج الأطفال فى الدول الديمقراطية من الحروب العالمية أكثر صحة وأفضل تغذية بالفعل عما قبلها يمكن أن يثبت النقطة المطروحة. كما يؤكدها أيضاً أن دول الرفاه كانت أغنى البلدان عند نهاية القرن، رغم ما تعرضت له من هجمات متصلة من جانب حكومات السوق الحر وايديولوچييها. وعلاوة على ذلك، كان مألوفاً لدى السوسيولوچيين وعلماء الانثروپولوچيا الاجتماعية أن دور

القرابة قد "تقلص ، بشكل عام، مع تزايد أهمية المؤسسات الحكومية". وسواء للأفضل أو للأسوأ، فقد انحدر مع "نمو النزعة الفردية الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمعات الصناعية" (Goody, 1968, p. 402-3). وبإيجاز، وكما كان متوقعاً منذ فترة طويلة، فقد كانت العلاقات بين أفراد الجماعة الواحدة (Gemeinschaft) تُفسح المجال أمام العلاقات بين الأفراد فى المجتمع على نطاق واسع (Gesellschaft): مجتمع الجماعة يُفسح المجال أمام الأفراد المرتبطين ببعضهم فى المجتمع العام الأكبر.

يصعب إنكار الميزات المادية التى كانت، وماتزال، تميز الحياة فى عالم يشهد انحدار الجماعة والأسرة. وقد أدرك قليلون حجم اعتماد المجتمع الصناعى، حتى منتصف القرن العشرين، على التكافل بين الجماعة وقيم الأسرة القديمة وبين المجتمع الجديد؛ ومن ثم أدركوا كيف كان مُرجحاً أن تبدو آثار التفسخ السريع المذهل.وقد بدا ذلك واضحاً فى عصر ايديولوچية الليبرالية الجديدة، عندما أُدخل ذلك المصطلح المروع - "الطبقة السفلى" - أو أُعيد إدخاله، إلى المفردات الاجتماعية السياسية حوالى عام ١٩٨٠.(٨) لقد كان أولئك هم الذين - فى مجتمعات السوق المتطور بعد نهاية مرحلة التوظيف الكامل - لم يتمكنوا من النجاح، أولم لم يرغبوا، فى بناء حياة لهم ولأسرهم فى اقتصاد السوق (حيث كان نظام التأمين الاجتماعى بمثابة المُكمل له)، الذى بدا أنه يعمل على نحو كاف بالنسبة لثُلثى غالبية سكان هذه البلدان فى جميع الأحوال حتى التسعينيات (ومن هنا أتت تسمية "مجتمع الثُلثين" التى صاغها فى ذلك العِقد السياسى الديمقراطى الاجتماعى الألمانى بيتر جلوتز Peter Glotz). إن ذات كلمة "الطبقة السفلى، مثلها مثل "العالم السفلى"، كانت تنطوى على استبعاد من المجتمع "العادى". لقد اعتمدت هذه "الطبقات السفلى"، من الناحية الجوهرية، على الإسكان العام والرفاه العام، حتى عندما كانت تستكمل دخلها عن طريق عمليات الإغارة على الاقتصاد الأسود أو الرمادى، أو عن طريق "الجريمة" - أى تلك الأجزاء من الاقتصاد التى لاتصل إليها النُظُم المالية الحكومية. ومع كل، نظراً لأن هذه الشرائح هى التى شهدت تحطيم التماسك الأسرى بدرجة كبيرة، فحتى غاراتها على الاقتصاد غير الرسمى - سواء بصورة قانونية أو غير قانونية - كانت هامشية وغير مستقرة. وكما أثبت العالم الثالث وهجراته الضخمة الجديدة إلى بلدان الشمال، فحتى الاقتصاد غير الرسمى لمدن الأكواخ والمهاجرين بصورة غير قانونية لم يكن يسير على نحو جيد إلا من خلال شبكات القرابة.

لقد أصبحت القطاعات الفقيرة من السكان الوطنيين الزنوج بالحضر فى الولايات

المتحدة، أى غالبية زنوج (Negros) الولايات المتحدة[٩]، مثالاً على "طبقة سفلى": كيان من المواطنين المُستبعَدين عملياً من المجتمع الرسمى ولايشكلون أى جزء فعلى منه، أو - كما فى حالة كثير من شبابه الذكور - من سوق العمل. وفى الواقع، كان كثيرون من شبابه، وخاصة الذكور، يعتبرون أنفسهم ينتمون عملياً إلى مجتمع خارج عن القانون أو ضد المجتمع. ولم تقتصر الظاهرة على من لديهم لون جلدى ما. فمع انحدار وسقوط صناعات القرن لتوظيف العمالة (القرن التاسع عشر وباكورة القرن العشرين)، بدأت هذه "الطبقات السفلى" فى الظهور فى عدد من البلدان. ومع كل، ففى مشروعات الإسكان - التى تولت تشييدها السلطات العامة المسئولية اجتماعياً عن كل الذين لايستطيعون تدبير نفقات سوق إيجارات المساكن أو شرائها، ولكنها مسكونة الآن من جانب أعضاء "الطبقة السفلى" - لم تكن توجد حتى جماعة، بل قدر قليل كاف من التبادل المتواصل بين الأقرباء. وحتى "الجيرة"، وهى البقية الباقية من آثار الجماعة، كانت بالكاد ما تقدر على تحمل الشعور بالخوف - بشكل عام من المراهقين الذكور الجُفاة الذين أصبحوا الآن يحملون أسلحة على نحو متزايد - ذلك الخوف الذى تفشى فى تلك الأدغال الهوبسية.(×)

وفقط فى تلك الأجزاء من العالم، التى لم تدخل بعد ذلك إلى الكون الذى يعيش فيه البشر جنباً إلى جنب وإنما ليس ككائنات اجتماعية وإنما كمجرد أفراد، عاشت الجماعة إلى درجة ما من خلال تنظيم اجتماعى ما، رغم أنه كان شديد الفقر بالنسبة لغالبية البشر. من الذى يستطيع أن يتحدث عن "طبقة سفلى" تمثل أقلية فى بلد مثل البرازيل، حيث كان ٢٠٪ من سكانه فى منتصف الثمانينات تحصل على ٦٠٪ من دخل بلدهم، فى حين كان ٤٠٪ فى القاع يحصلون على ١٠٪ أو حتى أقل؟ (UN World Social Situation, 1974, p. 84). لقد كانت حياة تتسم، بشكل عام، بالتفاوت فى المكانة وفى الدخل. ومع ذلك، كانت، بالنسبة للسواد الأعظم، ماتزال تخلو من عدم الأمان الذى يتخلل حياة الحضر فى المجتمعات "المتقدمة"، التى تفككت أوصال دلائلها للسلوك وحل محلها فراغ غير يقينى. وتتمثل المفارقة الحزينة للقرن العشرين (نهاية القرن) - بكل المعايير القابلة للقياس بشأن الرفاه الاجتماعى والاستقرار - فى أن الحياة فى ايرلندة الشمالية - التى كانت تشهد انتكاساً اجتماعياً وإن كان ذى بنية تقليدية، فضلاً عن البطالة وبعد عشرين سنة متصلة مما يشبه الحرب الأهلية - كانت أفضل، بل وأكثر أمناً بالفعل من الحياة فى أغلب المدن الكبرى بالمملكة المتحدة.

إن مأساة انهيار التقاليد والقيم لاتكمن كثيراً فى معوقات الحياة بدون الخدمات

(×) نسبة إلى الفيلسوف الانجليزى توماس هوبس (Thomas Hobbes) - المترجم.

الاجتماعية والشخصية التى كانت توفرها سابقاً الأسرة والجماعة. لقد كان يمكن إيجاد ما يحل محلهما فى دول الرفاه المزدهرة، رغم أن ذلك لايصدق على المناطق الفقيرة بالعالم، حيث أغلبية البشر ما تزال تمتلك القليل لتعتمد عليه ماعدا القرابة، والمناصرة، والعون المتبادل (فيما يتعلق بالقطاع الشيوعى من العالم، راجع الفصلين ١٣ و١٦). ولكنها تكمن فى التفسخ الذى حل بكل من النُظُم القديمة للقيمة، والعادات والتقاليد التى سيطرت على السلوك الإنسانى. لقد كانت هذه الخسارة محسوسة. وقد انعكست فى نهوض ما أصبح يسمى (مرة أخرى فى الولايات المتحدة، حيث أصبحت الظاهرة ملحوظة منذ نهاية الستينيات) "سياسات الهوية"، وعادة ما تكون عرقية/قومية أو دينية، وذات حركات نضالية تتوق نحو الماضى وتسعى لاستعادة عصر ماض افتراضى يتسم بنظام غير إشكالى وبالأمان. لقد كانت هذه الحركات بمثابة صرخات تطلب المساعدة أكثر من كونها حركات ذات برامج - إنها صرخات تسعى إلى "جماعة" تنتمى إليها فى عالم من المفارقات؛ وإلى أسرة تنتمى إليها فى عالم من الانعزال الاجتماعى؛ وإلى ملاذ ما فى الأحراش. إن كل مراقب واقعى، إضافة إلى أغلب الحكومات، كان يعرف أن الجريمة لم تتقلص أو تصبح تحت السيطرة بإعدام المجرمين أو بالردع من خلال أحكام قضائية طويلة؛ ولكن كل سياسى كان يعرف القوة الضخمة المشوبة بالعاطفة، سواء أكانت عقلانية أو لم تكن، للمطلب الجماهيرى لدى المواطنين العاديين بشأن معاقبة كل من هو ضد-اجتماعى.

لقد كانت تلك هى المخاطر السياسية للأنسجة الاجتماعية ونُظُم القيمة القديمة والبالية والمنهارة. ومع كل، ومع تقدم أعوام الثمانينيات، أصبح واضحاً بتزايد - بشكل عام فى ظل راية السيادة الكاملة للسوق - أنها استمرت أيضاً كخطر يواجه الاقتصاد الرأسمالى الظافر.

وعلى الرغم من أن النظام الرأسمالى مبنى على عمليات السوق، فقد اعتمد على عدد من النزعات لا ترتبط بصورة جوهرية بالسعى نحو مصلحة الفرد التى، كانت وفقاً لآدم سميث، وقوداً لمُحركها. لقد اعتمد النظام الرأسمالى على "عادة العمل" التى افترض آدم سميث أنها إحدى الدوافع الأساسية للسلوك البشرى؛ وعلى استعداد البشر تأجيل الإشباع أو الرضا الفورى لفترة طويلة، أى الادخار والاستثمار للفوز بالمكافأة فى المستقبل؛ وعلى الفخر بالانجاز؛ وعلى عادات الثقة المتبادلة؛ وعلى غير ذلك من السلوكيات التى لم تكن مُتَضمَنة فى زيادة منافع أى فرد زيادة عقلانية إلى الحد الأقصى. لقد أصبحت الأسرة جزءاً لايتجزأ من الرأسمالية المُبكرة، ذلك أنها أمدتها

بعدد من تلك الدوافع. ويصدق نفس الشئ على "عادة العمل": عادات الطاعة والولاء، بما فيها الولاء لمدراء الشركة، وغيره من أشكال السلوك التى لم تتمكن بسهولة من التأقلم داخل نظرية الاختيار العقلانى المرتكزة على الزيادة القصوى. وبمقدور الرأسمالية أن تعمل فى ظل غياب تلك الدوافع، ولكنها فى هذه الحالة تصبح غريبة وإشكالية، حتى بالنسبة لرجال الأعمال أنفسهم. وقد حدث ذلك خلال "موضة" قرصنة "الاستيلاء" على شركات الأعمال، وغير ذلك من المضاربات المالية التى اكتسحت الأحياء المالية فى البلدان ذات السوق الحر المُفْرِط مثل الولايات المتحدة وبريطانيا فى الثمانينيات، والتى حطمت عملياً جميع الروابط بين السعى نحو الربح وبين الاقتصاد كنظام للانتاج. ولهذا السبب، فإن البلدان الرأسمالية التى لم تنس أن النمو لا يتحقق بزيادة الأرباح لحدها الأقصى فحسب، (ألمانيا، واليابان، وفرنسا)، قد جعلت من هذه الغارات أمراً عسيراً أو مستحيلاً.

لقد أشار كارل پولانى - بعد أن أجرى مسحاً حول بقايا حضارة القرن التاسع عشر أثناء الحرب العالمية الثانية - إلى أن الفروض التى بُنيت عليها كانت استثنائية وغير مسبوقة: أى النظام العالمى ذاتى التنظيم للأسواق. ودخل فى جدل مع أطروحة آدم سميث حول "النزعة الطبيعية نحو المقايضة، ومبادلة شئ بآخر قائلا إنها" قد ألهمت "نظاماً صناعياً ..... انطوى، عملياً ونظرياً، ومؤكداً على أن الإنسان كان مسيطراً فى كل أنشطته الاقتصادية، إن لم يكن أيضاً فى مجالاته السياسية والفكرية والروحية، من خلال تلك النزعة الطبيعية المعينة" (Polanyi, 1945, pp. 50-51). ومع ذلك، فقد بالغ پولانى فى منطق الرأسمالية فى عصره، تماماً كما بالغ آدم سميث فى مدى ما يمكن أن يؤدى إليه السعى من جانب الجميع ، إذا ما أُخِذ فى حد ذاته، نحو مصلحتهم الاقتصادية من زيادة تلقائية فى ثروة الأمم.

وكما نُسلِم جدلاً بالهواء الذى نتنفسه ويجعل جميع أنشطتنا ممكنة، تُسلِم الرأسمالية بالمناخ الذى تعمل فيه وتوارثته من الماضى. ولكنها اكتشفت فحسب كم كان الأمر جوهرياً عندما أصبح الهواء ضئيلاً. وبعبارة أخرى، نجحت الرأسمالية لأنها لم تكن رأسمالية فقط. لقد كان أقصى الربح والتراكم شرطين ضروريين لنجاحها، ولكنهما غير كافيين. لقد كانت الثورة الثقافية فى الثُلث الأخير من القرن هى التى بدأت إحداث التآكل فى الأصول التاريخية الموروثة لدى الرأسمالية، وتبيان صعوبات العمل بدون هذه الأصول. إنها السخرية التاريخية لليبرالية الجديدة - التى أصبحت "موضة" فى السبعينيات والثمانينيات، وازدرت بقايا النُظُم الشيوعية - أن انتصرت فى ذات اللحظة التى كفت فيها عن أن تكون مقبولة كما كانت تبدو سابقاً. لقد استحق

السوق الانتصار عندما لم يعُد من الممكن إخفاء وجهه العارى وعدم كفايته.

إن القوة الأساسية للثورة الثقافية كانت محسوسة، بطبيعة الحال، فى "اقتصادات السوق الصناعى"، التى اتخذت طابعاً حضرياً، والمتعلقة بجوهر الرأسمالية القديم. ومع كل، وكما سنرى، فإن القوى الاقتصادية والاجتماعية الاستثنائية التى تم إطلاقها فيما بعد خلال القرن العشرين قد تحولت هى الأخرى إلى ما أصبح يسمى الآن "العالم الثالث".

الهوامش

(١) من بين سوق "المنتجات الشخصية" العالمى فى عام ١٩٩٠، كان ٣٤٪ يقع فى أوروبا غير الشيوعية، و٣٠٪ فى شمال أمريكا، و١٩٪ فى اليابان. أما باقى سكان العالم، وتبلغ نسبتهم ٨٥٪، فقد اقتسموا (الأغنياء منهم) ١٦-١٧٪ (Finiancial Times, 11/4/1991).

(٢) بدأ الشُبان فى أتون القيام بذلك لدى نهاية الخمسينيات، وفقاً لنائب رئيس مؤسسة تلك النخبة.

(٣) كان شيكو بيورك دى هولندا (Chico Buarque de Holanda) الشخصية الرئيسية فى مجال موسيقى البوب البرازيلية؛ وهو ابن المؤرخ التقدمى البارز الذى كان شخصية مركزية فى الصحوة الفكرية-الثقافية لبلده فى الثلاثينيات.

(٤) ومع ذلك، لم يكن هناك مايضاهى إحياء ايديولوچية واحدة تؤمن بأن العمل التلقائى، غير المُنظم، غير السلطوى، والمنادى بالحرية يمكن أن يتسبب فى خلق مجتمع جديد وعادل، وبلا دولة - وتحديداً فوضوية باكونين أو كروبوتكين؛ حتى على الرغم من توافق ذلك، على نحو أوثق، والأفكار الفعلية لدى الطلاب المتمردين فى الستينيات والسبعينيات أكثر من الماركسية التى كانت منتشرة حينذاك.

(٥) ينبغى تمييز مشروعية أى زعم عن الأطروحات المُستخدَمة لتبريره. فالعلاقة بين الزوج والزوجة والأبناء فى الأسرة المعيشية لاتماثل بأى حال العلاقة بين المُشترى والبائع فى السوق، حتى وإن كانت سوقاً وطنية. ويصدق نفس الشئ على قرار الخلفة، حتى وإن كان من طرف واحد؛ فهو قرار يتعلق على وجه الحصر بالفرد الذى يتخذه. وتتفق هذه العبارة البديهية اتفاقاً تاماً مع الرغبة فى تغيير الدور المنزلى للمرأة، أو مع تأييد حق الإجهاض.

(٦) إن النموذج العملياتى للشركة الكبرى فعلياً قبل عصر الرأسمالية المتحدة "رأسمالية الاحتكار") لم يكن مشتق من خبرة العمل الخاص، وإنما من بيروقراطية الدولة أو البيروقراطية العسكرية - مثلاً، زى موظفى السكك الحديدية. وفى الواقع، عادة ما كان، وينبغى أن يكون، خاضعاً لإدارة الدولة المباشرة أو أى سلطات عامة أخرى غير ربحية، مثل خدمات البريد وأغلب الخدمات البرقية والتلفونية.

(٧) هذا هو الفارق بين لغة "الحقوق" (القانونية أو الدستورية)، التى أصبحت مركزية بالنسبة لمجتمع النزعة الفردية غير الخاضعة للسيطرة فى كافة الحالات بالولايات المتحدة ، وبين اللغة الاصطلاحية الأخلاقية القديمة التى مثلّت خلالها الحقوق والالتزامات جانبى نفس العملة.

(٨) لقد كانت الفُضالة هى المُكافئ لهذا المصطلح فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر.

(٩) لقد كان الوصف المُفضل على المستوى الرسمى فى فترة كتابة هذا الفصل هو "الأمريكيون الأفارقة". ومع ذلك، تتغير هذه الأسماء - ظهرت خلال حياة الكاتب تغييرات عديدة ("الملونون"، "الزنوج"، "السود") - وسوف يستمر هذا التغير. ولقد استخدمت المصطلح الذى ربما يكون أكثر تداولاً عن أى مصطلح آخر بين أولئك الذين يرغبون فى احترام أصول العبيد الأفارقة فى الأمريكتين.